الأسس النصية في مقاربة أوجه البيان بين الشاهد البلاغي ونصوص اللغة الطبيعية

الأستاذ : إبراهيم بشـار
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة أم البواقي - الجزائر-

ملخـــص:

تجاذبت مصطلح البيان تيارات عديدة قبل أن يرتسم بوضوح ودقة على يد الجاحظ، الذي استطاع أن يحشد نصوصا متعددة الأنماط والمقامات مركزا على البعد الدلالي والتداولي، ليتخلص بذلك من سلطة النوع الشعري والمعيار النحوي التي هيمنت على الخطاب النقدي واللغوي عقودا طويلة. وتكمن أهمية البيان في استناد النص إلى شروط نحوية ومقتضيات تداولية في بحثه عن انسجامه..

Résumé :

Le concept d' «éloquence» avait fait un objet d'étude privilégié dans de nombreux courants littéraires , nous soulignons que le seul qui a pu le déterminer avec précision et clarté est Al-Jahiz.

En effet celui – ci a étudié sémantiquement et pragmatiquement une multitude de textes dans le but de libérer la critique littéraire de la norme purement linguistique qui avait longtemps régné.

L'importance de l'éloquence réside dans le fait de cohérence et de cohésion textuelles, celles-ci sont fondamentalement déterminées par les composantes locutoires et illocutoires.

قال تعالى:﴿ الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن- 1-4]. لعل أفضل نعمة أمدّها الله بني آدم أن علمهم البيان، لأجل ذلك جهد العلماء الأوائل أنفسهم في فهمه واستنباط أركانه وأنواعه وتحديد أحكامه، فاتسع مفهوم البيان حتى شمل كل أنواع التواصل اللفظي وغير اللفظي وانحصر أحيانا في بعض الأساليب البلاغية. وبين هذا وذلك يصعب على الدارس وضع حدود واضحة لهذا المصطلح الاستراتيجي.

فالبيان عند الجاحظ اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجُب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل. لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[1] ، وبذلك فهو يمتد في المشروع والطموح إلى نظرية في المعرفة استنباطا ومعالجة وتداولا ويتراجع في المنجز حسب مقتضيات اللحظة التاريخية معرفة ووظيفة إلى تقنية في التأثير والإقناع في مسألة التحول من الطموح إلى المتاح والعملي تدرج الجاحظ من كلمة بيان إلى كلمة بلاغة، ومن كلمة بلاغة إلى كلمة خطابة ينتقل من الواحدة إلى الأخرى وكأنما يتحدث عن الشيء نفسه[2].

1-البعد الشفوي المتحقق في البيان:

يبدو البيان في نظر الجاحظ متعلقا بالاتصال والممارسة أكثر من تعلقه بالملكة والاستعداد العقلي، فعلى الرغم من كون الجاحظ معتزليا يقدم العقل إلا أنه جعل المزية كل المزية في الاتصال الشفوي: «قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور العباد المتصورة في أذهانهم والمتخلجة في نفوسهم والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم مستورة خفية وبعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم وتجليها للعقل وتجعل

الخفي منها ظاهرا والغائب شاهدا والبعيد قريبا، وهي التي تلخص الملتبس وتجلى المنعقد وتجعل المهمل مقيدا والمقيد مطلقا والمجهول معروفا والوحشي- مألوفا والغفل موسوما والموسوم معلوما وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى»[3].

يتجلى تركيز الجاحظ على البعد النصي في قوله: **"وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها."** وكأن النص ينتقل من نطاق الكمون إلى التحقق ومن التحقق إلى الإيصال (علاقة المتكلم بنصه) ومن الإيصال إلى الاتصال (إخبارهم عنها) ومن الاتصال إلى الفعل (استعمالهم إياها)، وفي هذه الرحلة تدخل البنى اللغوية في تفاعل مع الدلالة ومع المقام لتحقق الانسجام ثم الوظيفة أو الفعل اللغوي الذي مثّل له صاحب البيان بـ :

إظهار الخفي-استحضار الغائب-تقريب البعيد-حل المنعقد وإزالة الملتبس-تقييد المهمل-إطلاق المقيد-إزالة الجهل-جعل الوحش مألوفا...وغيرها.

فالجاحظ يوسع دائرة الفعل الكلامي انطلاقا من الغرض الأساس للتواصل اللغوي وهو إظهار الخفي وإزالة الجهل واستشهاد الغائب مبرزا أن الأصل في اللغة الطبيعة أن توفر إمكاناتها الصوتية والدلالية لتعويض الأشياء ورسم معالمها بناء على نظام ذهني يكفل مقاربة المحسوسات والمجردات في هذا العالم، فيضع كلمات تنتظم في سياق بسيط يختزل عشرات المعاني والتأويلات و "يحذف" أطرا وسيناريوهات وخطاطات[4]. تشتغل في الذهن.

نموذج: إظهار الخفي وإزالة الجهل

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام في معاوية بن أبي سفيان: " اللهمَّ اجعلْهُ هادِيًا مَهْدِيًّا ، و اهْدِه ، و اهْدِ بهِ ، يعني مُعاويةَ "[5].

هذا النص بسيط من حيث بنيته التركيبية تتوالى فيه ثلاث جمل بسيطة تنتظم في إطارها ثلاث قضايا مرتبطة بالهداية.

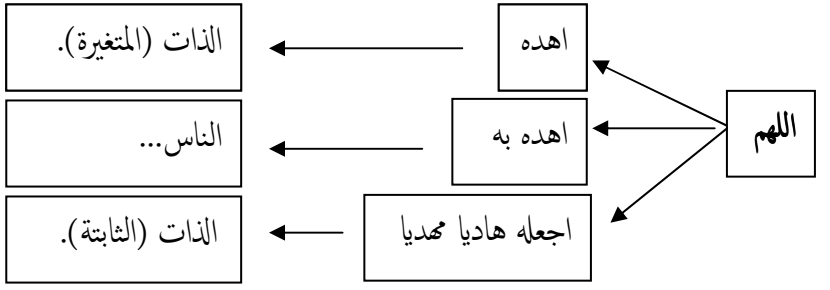

على أن هناك معانيَ مضمرة وصريحة وآنية (خطابية) ونصية (تأويلية) في هذه الكلمات "قد" تسهم مع قرائن سياقية في بلورة المعنى المقصود والحقيقة في هذا النص.

- طلب الهداية تكون للضال وللمهتدي زيادةً في هدايته.
- مباركة لأعماله.
- رد على دعاوى مغرضة ممكنة.

هذه الأطر الممكنة يمكن أن تصح بفعل التأويل مادام أنها مستنبطة من البنية اللغوية للنص، وقد تتضافر جميعها في انسجام باطني ذهني:

- اهده في بعض أخطائه.
- اهد به في فتوحاته ومناقبه.
- اجعله مهديا في عموم أعماله (حضوره بدر، كتابته الوحي...)...

وعلى الرغم من أن هذه الأطر منطقية إلا أن المتلقي بإمكانه إضافة الكثير عنها وترجيح أحدها على الآخر، وهذا التساوق بين القضايا السابقة يعضده المبدأ القائل بانسجام الأنظمة في العالم وعدم خروجها عن التفاعل إذ "إن للخطاب رغبته الممتلكة لكينونتها الذاتية، والتي لن ترضى عنها المؤسسة التي تتدخل لتوجه بلغة

أبوية صارمة، ترسم الحدود وتحدد المعالم"[6]. أو بعبارة أخرى يدخل المنجز اللغوي في مصالحة مع المتلقي تبعد وترفض التناقض.

قد يسهل سرد النماذج والشواهد المتعلقة بإعلام الجاهل وإيضاح المبهم لذا سنحلل بعض الشواهد الخاصة حيث تلتئم المتباعدات وتتصل المتقاطعات في إطار البيان؟

"...قبل أن نفترق أردت أن أساله عن حاله...عن حالنا جميعا...أردت أن أقول له لِمَ يمنح بعض المسؤولين الذين يخربون البلاد السيارات الفاخرة... وينجز هو عمله مترجلا رغم مستواه العلمي ومهمته الصعبة، ولكني سكت وهو يضغط على أصابعي ويقول:

ذو العلم يشقى في النعيم بعقله ... واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

كان هذا البيت كافيا الاجابة عن حيرتي كأنما قرأ ما جال في نفسي[7].

فالبيان هو ما سوغ استدراج بيت المتنبي في هذا السياق على الرغم من الهوة التاريخية والثقافية والنفسية بله الجنوسة (رواية / الشعر)، لكن اللغة لها صفة الخلود والاستمرارية، ولن يتم لها ذلك إلا من خلال التأويل.

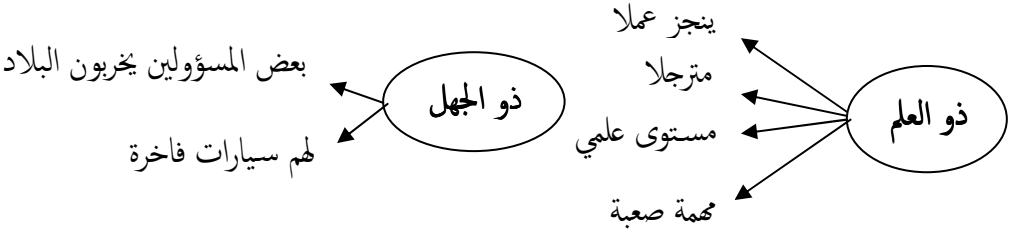

بل صار هذا النص "المقحم" مركزا عندما تحول إلى فعل "كان هذا البيت كافيا للإجابة عن حيرتي"، ذلك "إن تبادل النصوص أشلاء نصوص دارت أو تدور في فلك نص يعتبر مركزا، وفي النهاية تتحد معه، هو واحدة من سبل ذلك التفكك والانبناء، كل نص هو تناقص..."[8]. و لن يعرف التناقص إلا بتحليل القارئ لبنية النص واستنطاق ذاكرته القرائية وتسبيق الانسجام بين النص الحاضر والنصوص المتزامنة والسابقة.

نموذج: حل المنعقد وإزالة الملتبس:

قال عليه الصلاة والسلام: " أتدرون مَن المُفلِسُ ؟ قالوا :المُفلِسُ فينا يا رسولَ اللهِ مَن لا درهمَ له ولا متاعَ له فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم :)المُفلِسُ مِن أمَّتي مَن يأتي يومَ القيامةِ بصلاتِه وصيامِه وزكاتِه وقد شتَم هذا وأكَل مالَ هذا وسفَك دمَ هذا وضرَب هذا فيقعُدُ فيُعطى هذا مِن حسناتِه وهذا مِن حسناتِه فإنْ فنِيَتْ حسناتُه قبْلَ أنْ يُعطيَ ما عليه أُخِذ مِن خطاياهم فطُرِحت عليه ثمَّ طُرِح في النَّارِ. (9)

نموذج: جعل المهمل مقيدا:

« البث الإعلامي الموجه والمباشر عبر الأقمار الصناعية يحكمه مبدآن من المبادئ القانونية:

الأول: هو حرية تدفق المعلومات عن طريق البث المباشر كحق من حقوق الإنسان في حرية الفكر المنصوص عليه في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عام 1948م وفي بقية المعاهدات المنظمة لحقوق الإنسان.

الثاني: هو مبدأ سيادة الدولة المطلقة على إقليمها وشعبها وبالتالي فإن الإعلام الموجه إليه عبر الأقمار الصناعية يتناقض ومبدأ السيادة الذي يقتضي ملكية الدولة لأدوات الإعلام والمواد الإعلامية». (10)

حيث قيد المبدآن الأول والثاني ما كان عاما ومطلقا. وكثيرا ما ترتبط هذه الوظيفة بالعلوم القانونية، لأنها تسيّج سلوكات الناس وفق مبادئ وقوانين تعود إليها وتكون النصوص – سواء أكانت مكتوبة أم شفاهية- ذات صيغة « اصطلاحية قانونية ثابتة دقيقة للغاية، مع تغيرات خاصة وقواعد مميزة تعتمد على الوظائف القانونية الدقيقة لهذه النصوص . وعلى هذا فإنه يمكن لذلك أن تنشأ صلة وثيقة بين علم النص وعلم القانون». (11)

لم يكن الجاحظ قد صنّف بدقة أنواع النصوص على ضوء مفهوم البيان، لكن استطراداته الكثيرة وتعمقه في البنية المجتمعية للحياة العباسية يفضي إلى أنه استنبط مفهوم

البيان من كلام الخطباء والشعراء والقضاة والأمراء والدعاة والحضر والبدو والسوقة والحمقى وغيرهم ممن تتنوع خطاباتهم.

نموذج: جعل الوحشي مألوفاً:

إن الحديث المستفيض في كتاب البيان والتبيين عن مظاهر البيان كالصمت والكلام والإطالة والإيجاز والتكرار والحذف والتصنع والطبع واللغة الوحشي- والمألوف وغيرها مما قبحه الجاحظ وحسنه وقدّمه وأخّره يفصح عن إيمان بانسجام في هذا العالم، انسجام تتواءم فيه المتضادات وتتجاور المفارقات وتتفاعل مع بعضها بعضا على نحو خفي وباطني؛ فما من طبيعة إلا وهي مجذوبة بطبيعة أخرى، وما من طبيعة إلا وهي مقصورة لطبيعة أخرى، وما من طبيعة إلا وهي تهيمن على طبيعة أخرى. وعلى الرغم من أن هذه النظرية الفلسفية القائلة بانسجام الكون وقابلية التفاعل بين كل الأنظمة قد قابلتها نظرية تؤمن باتحاد الهويات وانفصالها [12]، إلا أن هذا لا يمنع من كون الجاحظ قد سطر بناء على قدرة استدلالية عالية مظاهر الانسجام بين المتضادات من خلال تقبيح المحاسن وتحسين المساوئ.

ولو عدنا إلى قوله بأن البيان يجعل الوحشي مألوفا لتبين لنا ذلك، ومثله:

- فاستعمال كلمة " أيضا" في الشعر يعد من الوحشي- كونها نادرة الاستعمال لكن استساغه البلاغيون في قول أبي بكر الشبلي :[بحر الرمل] [13]

رُبَّ وَرْقاءَ هتوفٍ في الضُّحا ذات شجوٍ صدحت في فنن
ذكرتْ إلفًا ودهرًا سالفا فبكت حزنا فهاجت حزني
فبكائي ربّما أرّقها وبكاها ربما أرّقني
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني

تذوق بعض البلاغيين جمالية الإيقاع في استخدام كلمة "أيضا" في هذه القصيدة فاسقطوا سوط المعيار وحاجز الفصاحة، لأن الكلمة دخلت فضاء النص وتخلت عن حمولتها الاجتماعية العرفية المعهودة لتكتسي من خلال تفاعلها مع كلمات أخرى فصاحة غير معهودة لتكتسي من خلال تفاعلاتها مع كلمات أخرى فصاحة غير معهودة وتحقق الوظيفة الشعرية التي قد لا تحققها كلمة أخرى في هذا السياق.

قراءة أولى للنص من شانها أن تجعل القارئ ينتبه لتواتر صوت النون (13 مرة) فضلا عن التجانسات الصوتية بين كلمة " أيضاً" مثلا وغيرها في هذه الأبيات

إلْفًا، دَهْـرًا ، أَيْضًا، شَجْوٍ

0/0/ 0/0/ 0/0/ 0/0/

وهذا ما جعلها تتماهى في نسق موسيقي مبني على التناسب مما أحدث الوظيفة الشعرية، « فأجود الشعر ما رايته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فيعلم بذلك انه أُفرِغ إفراغاً واحدا سبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما تجري على الدهان». (14)

وفي الشعرية الحديثة ظل التعديل على الإيقاع قائما حتى أننا لم نعد نسمع بكلمة لا تجوز في الشعر أو تنبو عن الاستعمال، فيضمن الشعر المعاصر كلمات (خريطة، كيمياء، تلفاز...).

نموذج: جعل الغفل موسوما والموسوم معلوما:

تمثل الدوال نظاما تعويضيا لعديد الأشياء فتصف اللغة نفسها وغيرها ، لكن التعويض الذي تقوم به اللغة ليس تطابقيا، كون الدوال وإن فُصِلت عن سياقها فإنها تشكل في الذهن نظاما آخر تكتسب من خلاله هويتها فلا يمكن أن تقول إن كلمة " إبل" متطابقة مع نظيرتها في اللغة الفرنسية مثلا" فهذه الكلمات المعزولة – نسبيا- تتفاوت بين العربي و غيره.

يقول بنفينيست (Benveniste): «نحن نتأمل عالما شكّلته أو مثلته قبلنا لغتنا». (15)

وإذا كان جعل الغفل موسوما يجسد الوظيفة الابتدائية للغة فان جعل الموسوم معلوما تترجمه الوظيفة الشارحة.

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس الآية 33--36]، فتسمية يوم القيامة بالصاخة يدخل في جعل الغفل موسوما ، أما أن نقف عند التعريفات الاصطلاحية-مثلا- في كتاب التعريفات للجرجاني فتمثل جعل الموسوم معلوما .

2-البعد المعرفي في البيان (الذاكرة التناصية/ التناص):

لم يتقبل ابن وهب عمل الجاحظ بعد أن وصفه بالانتقائية والسطحية وانطلاقه من المنجز والمتحقق الخاص دون الانجاز الكامن العام الذي بإمكانه وصف كل الخطابات، لأجل ذلك استعمل صاحب البرهان في وجوه البيان كتابه تحديث مفصل عن العقل موهوبا ومكتسبا في سابقة كي الطابع الذهبي للسان وارتداد كل المنجزات اللغوية إلى تصورات عقلية فضلا عن تناسخ تلك المنجزات على المكتسبات الواقعية (المعرفة بالعالم/ العقل المكتسب). « **فبالفكر والاعتبار يتقى الزلل والعثار، بالتجارب تعرف العواقب وتدفع النوائب .فإذا تفكر الإنسان وتدبر ونظر واعتبر وقاس ما يدله عليه فكره بما جربه هو من قبله تبين له ما يريد أن يتبينه وظهر له معناه وحقيقته . وقد ذكر الله عز وجل البيان وامتدحه وامتدح بأنه علمه الإنسان** »[16]، فكان بذلك تصور ابن وهب متجها نحو الباطن المعرفي لا المتحقق الشفوي .

والخلاصة أن البيان مرتبط في كتاب البرهان بالاستدلال والإقناع بالوسائل المنطقية والخطابية كما هو مرتبط بتجويد قناة التواصل مثل الكتابة، وذلك بتقديم المعارف اللازمة لهذا، التجويد.

فالناس يدركون ويعبرون بثلاث وسائل أساسية .

– التفكير والتأمل في الكون عن طريق العقل، أو إدراك معانيه (الكون) عن طريق الحواس. وهذا هو الاعتبار ويختزنون تلك المعارف ويحلونها محلاتها من نفوسهم وذلك هو الاعتقاد.

– التعبير اللغوي عن هذه المعارف وهو العبارة .

– نقل المعارف عن طريق الخط وهو الكتاب.[17]

ولقد سعى ثلة من اللسانيين المعاصرين إلى إبراز أهمية الملكة النصية في إنتاج نصوص متسقة ومنسجمة سواء ما تعلق بالاتجاه التوليدي التحويلي على يد بتوفي وفان دايك [18]، أو التداولية النصية مع جان ميشال أدام (الذاكرة النصية). الذي ربط السياق بالمخزون الفكري والنص بالمتفاعلات السابقة ليتوسل إلى أهمية الذاكرة (تناص، معرفة بالعالم) في إحداث النص لفعله. وقد ضرب مثلا بقصة واقعية حدثت مع وزير التربية الفرنسي. فبالعودة إلى الذاكرة النصية الجماعية نتوصل إلى مقبولية ذلك النوع من النصوص غير المنسجمة ظاهريا، وعدم الانسجام هنا يقصد به مخالفة المعني اللغوي لصيرورة الأشياء في الواقع .

نصوص :

– وشبيه بهذا ما قدمه جان ميشال أدام عن نصين من اللغة الطبيعية هما : [19]

– قتلني عمر Omar m'a tuer: عبارة انتشرت في الإعلام الفرنسي. كتبتها سيدة تدعى مارشال في باب بيتها. وقد اتهمت الشرطة في ذلك الوقت مغربيا يدعى عمر رداد كان عاملا عندها .

– قتلني أليقر Allègre m'a tuer: هذا النص مأخوذ من النص السابق، وقد استخدمه الطلبة الفرنسيون ببعض التصرف ضد وزير التربية الاشتراكي " Paul

Allègre" بعد تدني المستوى التعليمي، وقد عمدوا إلى تسجيل النص بخطئه لإيصال رسالتهم .

– " الخضر في أم درمان 2 . "[20] : هذا النص مثل عنوانا رئيسا لجريدة النهار، وجاء إعلاما لتأهل المنتخب الوطني الجزائري للدور الحاسم من تصفيات كأس العالم 2014. الكلمة المفتاح في هذا النص وقد شغلت المحمول قضويا والخبر نحويا والبؤرة نصيا هي «أم درمان 2»؛ إذ إن هذه العبارة غير منسجمة مع الذاكرة النصية الجماعية الجزائرية، حيث تعيد هذه الكلمة للأذهان المباراة الفاصلة بين منتخبي مصر والجزائر في أم درمان.

وبهذا استند الخطاب الإعلامي إلى " نص " مكثف دلاليا وسيمائيا حتى يربط بين حادثين (التأهل لكاس العالم 2010 والتأهل لكاس العالم 2014).وما يستتبعها من انعكاسات.

وعليه يصبح حديث ابن وهب عن التدبر والنظر والاعتبار والقياس والتجربة الذاتية وغير الذاتية قبل البيان إشارة واضحة إلى عملية إنتاج النص والا كيف تنسى- له الوصل بين بعض النصوص لجامع خفي هو الانسجام :

الشاهد:

قال بعضهم: « قل للأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك فان أجابتك حوارا وإلا أجابتك اعتبارا». فهي وان كانت صامتة في أنفسها فهي ناطقة بظواهر أحوالها . وعلى هذا النحو استنطقت العرب الربع وخاطبت الطلل، ونطقت عنه بالجواب، على سبيل الاستعارة في الخطاب. وقال الله عز وجل في هذا المعنى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾[غافر:21]. وقال الشاعر :

يا ربع بُسرةَ بالجناب تكلّم ... وأبن لنا خبرا ولا تستعجم

مالي رايتك بعد أهلك موحشا ... خلقا كحوض الباقر المتهدّم

فاستنطق ما لا ينطق بلسانه، لأن أحواله مظهرة لبيانه.[21]

3 الملكة النصيـــــــة- البيان:

يتعمق صاحب البرهان في وجوه التبيان كثيرا في عملية إنتاج النص منتقلا من مسألة تفاعل النصوص على تنوعها إلى تكوين الملكة النصية حيث يركز كثيرا على ما يشبه في التعليمية الحوض اللغوي :«وليس شيء أعون على جزالة الكلام وخروجه عن تحريف ألفاظ العوام من مجالسة الأدباء ومعاشرة الفصحاء وحفظ أشعار العرب ومناقلاتهم، والمختار من رسائل المولدين الأدباء ومكاتباتهم». [22] وتراهن اليوم التعليمية كثيرا على أفرزته لسانيات النص من إجراءات عملية لتقليص الهوة بين اللغة الافتراضية والواقع اللغوي من خلال تعليمية اللغة بالنصوص. [23]

حيث استطاع علماء النص من مقاربتهم لعديد النصوص أن يستنبطوا بنيات مماثلة تتحكم في أنماط نصية لكل لسان، ولأجل ذلك « كانت ملوك بني أمية يخرجون أولادهم إلى البوادي، لينشؤوهم على الفصاحة وجزالة الألفاظ، وله أيضا علم الناس أولادهم الرسائل ورووهم شعر القدماء وحفظوهم القرآن وأمروهم بتحقيقه ورفع أصواتهم بالقراءة والإنشاد ليعتادوا الكلام الجزل وتتفتق به لهواتهم وتذل به ألسنتهم وتتشكل بتلك الأشكال ألفاظهم؛ فان التخلق يأتي دونه الخلق والعادة كالطبيعة ». [24]

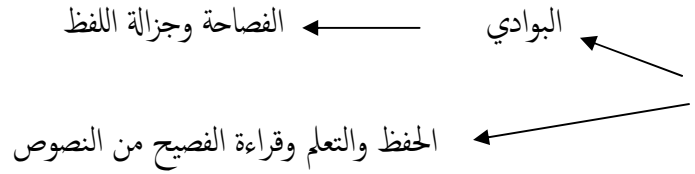

حيث أن هناك طريقين تقودان إلى تهيئة الملكة النصية، الأولى تتطلب نقل المتكلم أو المرسل إلى المناخ اللغوي الحقيقي (بادية قديما) والثاني تتطلب معاشرة المتكلم لنصوص فصيحة من شانها أن تنقش في ذهنه أنماطا بيانية:

ويكون ذلك بعد خطوات :

السماع (ليعتادوا الكلام الجزل).
النطق (تتفتق به لهواتهم).
المحاكاة (تذر به ألسنتهم)
الإنتاج لنصوص موزاية (تتشكل بتلك الأشكال ألفاظهم) .

وهكذا تقترب إسهامات البلاغة مع إنجازات لسانيات النص، فالبيان أو النص قادر على تفعيل القدرة الإنتاجية للمتعلم وتنشيط القراءة النقدية له .

4- البيان باللفظ/ شروط الإنتاج والإيصال المباشر (الخطاب)

إذا عدنا إلى أركان البيان عند الجاحظ "« اللفظ والخط والإشارة والعقد والحال نجد تأكيدا على المتحقق والمنجز بين اللغة فالأوجه الثلاثة الأولى تتضوى تحت الجانب الفيزيائي الفزيولوجي (اللفظ والإشارة) (الخط) بينما يشتغل الذهن عن طريق النظر والاستنتاج والتأويل في (العقد والحال). ولا تعدم في هذين الركنين تدخل الجانب اللغوي (القواعد المركوزة في الذهن).

فالرؤية البيانية مهما اتسعت وذكر فيها أصناف الدلالات على المعاني ظلت رؤية بيانية لغوية تهتم " بالبيان باللفظ"، أما ذكر أصناف البيان الأخرى فكان عملية إخلاء لتحديد الموضوع الذي هو الدلالة باللفظ، كون الجاحظ تعامل أساسا مع البيان الشفوي مع الخطاب بمعناها الواسع الذي يمتد من الحديث العادي الدائر بين الناس في حياتهم العامة إلى الخطاب الشعري الذي كان هو الآخر منشدا.

بينما اتجه صاحب البرهان منحى فلسفيا ووسع مجالها خصوصا في باب الاعتبار كما كان مشدودا إلى التطور الذي نال النثر بتطور جهاز الدولة وتوسعه وتعقده وتنظيم وظيفة الكتابة وحرفتها لأجل ذلك خص الكتاب أو البيان بالخط بفصل يستحق أن يكون كتابا مستقلا، ليرتسم الانتقال من الشفوية إلى الكتابة. (25)

وبالنظر إلى المعطيات السابقة نجد البيان باللفظ والعبارة (يتجاذب مع مصطلح خطاب خصوصا في تصور غوستاف غيوم (Gaillaume) « في الخطاب [...] يبدو الفيزيائي الذي هو الكلام في حد ذاته حقيقيا مجسما ماديا، وصادرا في ما يتعلق به من

وضعه النفساني الذي ينطق منه، والكلام، في مستوى الخطاب، تجسم وأصبح واقعا: فقد وجد فيزيائيا ».[26]

ويستعرض الجاحظ في عمله عيوب النطق وسلامة الآلة وتنافر الحروف وأثرها في البيان لان الأمم القديمة كانت تولي أهمية كبرى لفصاحة اللسان بل ذهبوا إلى ربطها بالمروءة ولم تنقص أهمية البيان بالعبارة خصوصا مع ازدهار السمعي البصري وتنافس القنوات في جذب الأسماع والأبصار...

ولم يكن الحديث عن عيوب النطق وسلامة آلة البيان وتنافر الحروف وغيرها في البلاغة مرآة لعصر مليء بالفرق والأهواء فحسب لكن لإيمان البلاغيين بالطبيعة النطقية للسان، ولعل ما يشهده حاضرنا من ازدهار كبير في المعلومات والتكنولوجيا زاد في أهمية النطق والسماع (السمعي البصري)، بل صار الاعتماد على التسجيل الصوتي مطية للوصول إلى النص " الحقيقي".

وتعد عملية النطق من الوسائل الأساسية لتحقيق اللغة لفعلها خصوصا في المشاهد السينمائية والمسرحية فضلا عن ارتباط قداسة بعض النصوص بأدائها:

نصوص :

قال تعالى على لسان نوح مخاطبا ابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ [هود 42] ، هذه الآية يمكن أن تتنوع أفعالها حسب الأداء الصوتي فتكون :

- (اركب معنا) ←——— أمر بالوجوب (إنذار).
- (اركب معنا) ←——— أعرض النصيحة (عرض)
- (اركب معنا) ←——— أمر بتردد (مجاملة).

« وإخراج هيئات الكلام هذا المخرج في لغة التخاطب الشفوي يتعذر نقلها بأسلوب التخاطب المكتوب (...) ثم أن التنقيط وطريقة كتابة الحروف الأولى من الكلمات بتطويلها وترتيب الألفاظ لا يمكن أن يكون ذلك كله عونا لنا في شيء ولا يعني بغرضنا».[27] لان فعل التلفظ ينطلق من النطق كما أن من شان الأداء الصوتي تغيير

سلوك الأفراد وإظهار الحق في صورة الباطل أو الباطل في صورة الحق، وهذا ما حدا بعلمائنا الأوائل إلى ايلائه أهمية كبرى خصوصا أن الذاكرة الجماعية كانت " شفوية" : « ... لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن لما كان عليه بأس، ولكنه عسى- أن يكون أراد أبطالا لحق فتشادق في كلامه». [28] وهذا الشاهد قيل في ذم السجع خوفا من محاكاة سجع الكهان .

5- البيان بالكتاب: خصوصية التأليف والتلقي :

بانتقال الحضارة العربية من المشافهة إلى التدوين خصوصا بعد احتكاك العرب بغيرهم وازدهار المعارف تحول الاهتمام إلى البيان بالكتاب «لأن اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم مطلق في الشاهد والغائب وهو للغابر الكائن مثله للقائم الراهن، والكتاب يقرأ بكل مكان يدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوز إلى غيره ». [29] أي إن تحويل المنطوق إلى المكتوب يفضي- إلى خصوصية الاستمرارية التي تتعدى الزمن الحاضر بملابساته الفعلية إلى زمن مفترض احتمالي بملابسات ممكنة.

فإنتاج النص يتأثر بالمقام وقد يكون أنيا محددا أو مؤجلا مطلقا، ثم إن الله عز وجل لما أراد «أن يعم بالنفع في البيان جميع أصناف العباد، وسائر آفاق البلاد وان يساوي فيه بين الماضين من خلقه والآتين، والأولين والآخرين ألهم عباده تصوير كلامهم بحروف اصطلحوا عليها ». [30]

ويبدو ارتباط البيان بالنص ظاهرا في استحضار فعلي التأليف والتلقي :

فعل التأليف	فعل التلقي
" القلم احد اللسانين" استعمال القلم أجد أن يخض الذهن على تصحيح الكتاب. وهذا البيان والآتي [الكتاب] فهما يتغيران تغير اللغات ويتباينان بتباين الاصطلاحات" " إن الله تعالى أن يعم بالنفع في البيان جميع أصناف العباد وسائر آفاق البلاد وان يساوي فيه بين الماضين من خلقه والآتين (...) عبروا به عن ألفاظهم ".	« القلم أبقى أثرا واللسان اكثر هذرا». «القلم مطلق في الشاهد والغائب وهو للغابر الكائن مثله للقائم الراهن » « الكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان ».

لقد انتُقِد تعريف بول ريكور (P. Ricour) الرامي إلى جعل النص مكتوبا والخطاب مسموعا انطلاقا من ارتباط هذا التحديد بوسيلة ووسيط وليس معبرا عن النص المتعدد السمات . [(31)] لكن هذا لا يفضي- إلى إلغاء خصوصية النص المكتوب من حيث عملية الإنتاج وما تقتضيه من اختزال واستبدال وإضمار وتأليف وتكرار وعلامات ترقيم تستغل فيها الذاكرة البصرية أكثر بما تتطلب من تفكيك وتركيب وربط وتأويل حسب كل مقام متجدد. فقد يستثقل المتلقي كثرة الضمائر وتداخلها في الخطاب الشفوي بينما يستسيغها في الخطاب المكتوب والأمر نفسه بالنسبة لعملية الإنتاج، إذ لا يلزم المتكلم ما يلزم الكاتب من المراجعة: "القلم أجدر أن يحض الذهن تصحيح الكتاب " " القلم يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان" .

ولا يلغي اللسان الكتاب أو الكتاب اللسان ، على الرغم من أن التيار العام كان لصالح الخطاب الشفوي «فجعل اللفظ لأقرب الحاجات ، والصوت لأنفس من ذلك قليلا، والكتاب للنازح من الحاجات». [(32)]

فالمقيد بالخط تمليك استقلاليته من كون المتلقي مؤجلا وقد يتعدد حسب ملابسات القراءة.

يشتغل فيها الذهن أكثر (القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب) وعملية التلقي بما تتضمنه من قراءة وتأويل وتفكيك وتركيب حسب كل مقام متجدد (يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان). ولا يلغي اللسان الكتاب أو الكتاب اللسان كونهما مظهرين أساسيين لكل موضعه.

ونستنتج مما سبق أن مقاربة البلاغيين للفظ (العبارة) والخط (الكتاب) ارتكزت على الجانب التفاعلي أكثر من البنيوي .

والركن الثالث من أصناف الدلالات عند الجاحظ الإشارة وقد أدرجها ابن وهب ضمن بيان الأشياء بذواتها (الاعتبار) « وقد يصمت الإنسان ويستعمل الكتمان لمخافة أو رقبة أو إسرار عداوة أو بغضة، فيظهر في لحظاته وحركاته ما يبين عن ضميره ويبدي مكنونه، مثلما يظهر الدمع عند فقد الأحبة، ومن تغير النظر عند معاينة أهل العداوة (...) وهذا من بيان الأشياء بذواتها» .[33]

6-البيان بالإشارة نحو استيعاب نصوص غير لغوية :

من أصناف الدلالات بالإشارة ، ففي الوقت الذي افرد لها الجاحظ نوعا نجد ابن وهب قد أدرجها في باب الاعتبار" وقد يصمت الإنسان ويستعمل الكتمان لمخافة أو رقبة أو إسرار عداوة أو بغضة، فيظهر في حركاته ولحظاته ما يبين عن ضميره ويبدي مكنونه مثلما يظهر من الدمع عند فقد الأحبة، ومن تغير النظر عند معاينة أهل البداوة (...) وهذا من بيان الأشياء بذواتها». [34] لكن رؤية دقيقة لعلاقة الدوال بالمدلولات تجعلنا نسلم بوجود إمكانات أخرى للتعبير غير اللفظ فـ « لولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ولجهلوا هذا الباب البتة. ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم »[35]. إن العلاقة بين الإشارات وما تحيل إليه تتجاوز التعويض المعروف المتداول للمعاني لتكتسي وظيفة من وظائف اللغة الرئيسية سماها القدماء تفسيرا أو تأويلا ويسميها العلماء اليوم بوظيفة«ما وراء اللغة عندما تدور اللغة على نفسها وينكشف بعضها ببعضها بصياغة النص صياغة أخرى »[36]. فتكون الإشارة نعم الترجمان عن اللفظ خصوصا في مقام «مخافة أو رقبة أو إسرار عداوة أو بغضة »[37]. وهنا نتساءل عن حال الإشارة مع

الخط خصوصا إذا كانت الكتابة أدبية .

الإشارة / مع التواصل العادي	الإشارة / مع التواصل العلمي
" وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير" . (38) " وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان بالبيان مع الذي يكون مع الإشارة من الدال والشكل والتفتل والتثني واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور". (39) " فيظهر في حركاته ولحظاته ما يبين عن ضميره ويدي مكنونه، مثلما يظهر من الدمع عند فقد الأحبة ..."	استخدام الضمائر والعناصر الاحالية عموما. استخدام الرموز خصوصا في النصوص الفنية. استعمال النصوص القديمة عبر آلية التناص (دينية، أسطورية...). الإلغاز والتغريب في صناعة الصور.

إذا كان الدرس البلاغي متوزعا بين الحديث عن المناسبة التداولية والغرابة الشعرية فان الأمر ينطبق على الإشارة بين الخطاب الشفوي العادي والنص المكتوب الفني ويوحد بينهما المقام إلى حد ما ويفضي إليهما معنى خاص الخاص فمقام " الخوف أو الرقابة أو إسرار العداوة أو البغضة" كما قال ابن وهب تفضي إلى لعب باللغة وتغريب للمعنى حتى تصل الرسالة في صورة محددة، وليس هذا محصورا في زمان أو مكان، فما نظر له القدماء من قوانين تثير الحوار بالنسبة للمجادلة وذكروه من هيئات الخطيب سنجد له أثرا من الكتابة الأدبية بطريقة تختلف وفي الكتابة الصحفية مع الضغوطات السياسية والرقابة الأمنية.

نموذج:

«قال الحجاج لرجل من الخوارج: أجمعت القران ؟ قال أمتفرقا كان فاجمعه؟ ! قال أتقرأ ظاهرا؟ قال: بل أقرؤه وأنا انظر إليه. قال أتحفظه ؟ قال : اخشيت فراره فاحفظه؟! قال ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال : لعنه الله ولعنك معه.قال : انك مقتول فكيف تلقى الله؟ قال : ألقاه بعملي وتلقاه بدمي »[40].

في بعض الدوال، وقد تكون الرقابة نقدية تشجع على اجتراح معنى " خاص الخاص " بتعبير الجاحظ فيستخدم الأديب ما يمكن أن يعوض الإشارة كالبياض والسواد والرموز مما يعد عقدا افتراضيا مع نوع خاص من المتلقي .

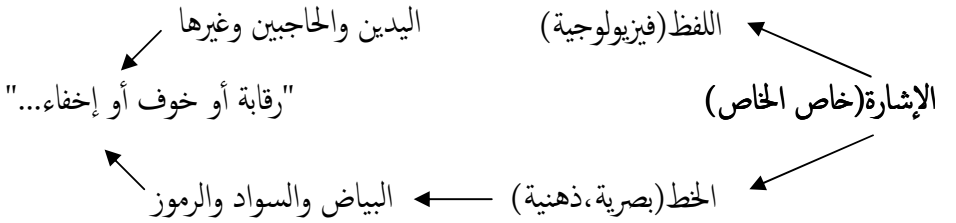

لا غرو أن يتضافر البيان بالعبارة مع الإشارة في بعض النصوص ويتضافران ف«الإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط ».[41] وخصوصا إذا كان فحوى التواصل خاص الخاص فـ" « لولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ولجهلوا هذا الباب البتة ».[42]

نموذج:

« وكان أبو شمر إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه. حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة. وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك وبالعجز عن بلوغ إرادته. وكان يقول : ليس من المنطق أن تستعين عليه بغيره حتى كلّمه إبراهيم بن سيار النظام عند أيوب بن جعفر فاضطره بالحجة وبالزيادة في المسالة حتى حرك يديه وحل حبوته [جلسته] وحبا إليه حتى أخذ بيديه » .[43]

وكان القرآن الكريم مرآة صادقة لاستخدام الحركة الجسمية المعبرة عن المعاني ليس فقرا في التعبير اللفظي بل محاكاة لواقع الأمر كون العرب يستخدمون إلى جانب الكلام الحركة الجسمية اشتمالها على مكملات الكلام الأساسية والآيات كثيرة التي نقلت هذه المشاهد نذكر منها : (44)

- قال تعالى:﴿ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى- عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ الأحزاب 19.

-﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ الكهف 42.

-﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ مريم 29.

- ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ المطففين 30.

- ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ آل عمران 119.

لقد نقل لنا القران الكريم وكتب الأدب والنقد كثيرا من هذه الإشارات كتابيا، وعملية التحويل من الحراك إلى المكتوب أو من الإشاري إلى اللغوي تقضي- إلى اختزالات وتغيرات عن النص الأصل.فعلى الرغم أن كليهما مبني على سنن « فهل تعدوا الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة » . (45)

إلى أن الألفاظ لا تطابق الحركة الجسمية " الكينة".

يرى الانثروبولوجي الأمريكي راي بير دوسل (Ray.L.Birdwistell)« أن نسبة الكلام عن المعاني تتراوح بين 30 إلى 35 ٪ فقط».(46) ولعل هذا ما حدا بان شمر عند مناظرته للنظام الاستعانة بغير الفظ للتعبير عن أدق المعاني وعن خاص خاصتها.

ومقولة خاص الخاص وشرط الحضور (متكلم ومتلقي) بعدان نصيان لان التواصل الإشاري الجسمي تضمن المبادئ الأساسية للنص : التركيب والدلالة والمقام:

السنن: حيث يفترض أن بين طرفي التواصل وضعا متفقا عليه في حركة الرأس والحاجب وكيفية النظر يتشابه مع النظام اللغوي.(*)

الدلالة: فلحدة النظر ولتقطيب الحواجب والابتسامة دلالة ومعنى مختلف عن طلاقة النظر ورفع الحاجبين والعبوس .

المقام أو مطابقة النص للواقع الاجتماعي: فهذه اشد ما تكون في التواصل بالإشارة، لأنها تصريحية مباشرة في اغلب الأحوال .

وأرجع بعض الباحثين الإكثار أو الإقلال من استخدام الحركة الجسمية إلى الرغبة في التخفيف من مشقة الكلام نظرا لمزاج المتكلمين أو فقر لغتهم أو حالة المناخ أو غير ذلك من الأسباب.(47)

وبغض النظر عما أثاره استخدام الحركة الجسمية أثناء الكلام من جدال فانه لا ينكر أحد الحاجة إلى عمليات الاتصال خصوصا في الخطابة والوعظ والتدريس والرياضة والفن المسرحي...مما يجعل الإشارة ميدانا خصبا تستجديه لسانيات النص في إطار تشعباتها المختلفة .

7- النصبـــــة وبلاغة المعرفة بالعالم :

وليس ببعيد عن الإشارة نجد الحال أو النصبة أو الاعتبار تجوزا، «وهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد. وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وفي كل صامت وناطق وجامد ونام ومقيم وظاعن وزائد وناقص » .(48)

وهذه نظرة خطيرة في توثيق الصلة بين الجمادات والحيوانات وإيذان بأهمية البنية الكونية في رسم أفق التفكير لدى الإنسان، ويبقى الخيط الجامع في تفكير بلاغيينا هو الدين واثبات الربوبية ولو ببعض المناطق " فلكل حدث محدث".

لم يكن الحديث عن الأشياء في العالم سواء أكانت محسوسة أو مجردة، حاضرة أم غائبة على سبيل الإطالة فحقيقتها تكمن في وظيفتها، وابرز وظائفها إثبات الوحدانية لله عز وجل، بيد أن ما يتطلبه النص من تفاعل بين وحداته وانسجام باطني واتساق ظاهري ينطبق على الكون، بل رؤية الإنسان للعالم وما يحدث فيه من تعالقات تؤقلم الخطاطة الذهنية للنص. ف"دلالة الشيء على غيره تكون بأحد أربعة أشياء: إما بالمشاكلة (...) وإما بالمضادة فإن الضد يكسب معرفة الضد، (...) وإما العرض كما يعرف الجسم بالطول

والعرض والسمك وإما بالفعل كما يدل الولد على الوالد....[49]

إن إبراز انتظام الكون بأنهاره وأشجاره وثماره وشخوصه (علاقات الكلية، السببية، التشابه، الاختلاف..) تجاوز إبراز الدلالة على الربوبية إلى حوار مع الإنسان قال الراعي :

إن السماء وإن الريح شاهدة والأرض تشهد والأيام والبلد

لقد جزيت بني بدر ببعضهم يوم الهباءة يوما ما له قود [50]

كما اعتمد القدماء على تلك الرؤيا لتحليل الكون إلى مكوناته وعناصره وعناصره لإدراك كنهها ومكانتها وعلائقها وأدوارها وللتعرف على القوة المسيرة به والمتحكمة فيه، فان المحدثين المعاصرين يستندون إليها للكشف عن البنية العميقة المشتركة التي وراء ما في الكون جميعه، وعن بنية البنية الرابطة بين العناصر والمجالات والظواهر وغيرها. [51]

لقد حدد ابن وهب محورين أساسيين للاعتبار هما القياس والخبر فلولاهما لما عرفنا باطن ذلك ولا مراد الله فيه ولا كان ظاهر اللغة يدل عليه . [52] إذ يصعب فهم العالم دون تجارب سابقة تبنى عليها تجارب لاحقة حتى تختزل التراكمات وتنظم العلاقات في إطار التشابه والتدرج، وهنا نقترب من المنطق غير أن المناطقة «يقولون انه لا يجب قياس إلا عن مقدمتين لإحداهما بالأخرى تعلق. والقول على الحقيقة كما قالوا، وإنما يكتفي في لسان العرب بمقدمة واحدة على التوسع وعلم المخاطب». [53] أو بعبارة أخرى يمتلك الإنسان ملكة تشتغل على النماذج المعدودة لتقدم نماذج أكثر بناءا على ما يتسم به من ابداعية.

ويذهب براون ويول" Brown &yule" إلى أن المعرفة التي نملكها بوصفنا مستعملين للغة ما ليست سوى جزء من معرفتنا الاجتماعية الثقافية العامة عن العالم ، إذ أنها ليست أساس فهمنا للخطاب فحسب بل ربما لكل جوانب خبراتنا الحياتية، فمسالة كيفية معرفة الناس بما يجري داخل النص هي حالة خاصة من مسالة كيفية معرفة الناس بما يجري في العالم بأسره . [54]

نموذج:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ{17} وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ{18} وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ{19} وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ{20}﴾ [الغاشية: 17-20] لا يمكن أن ننظر إلى هذه الكلمات بمعزل عن حمولتها الثقافية أو أن ما نشير إليه من تداعياتها يمثل نزرا يسيرا من هويتها، فكلمة : ابل" قابلة للتجزئة [حيوان+ ثدي+ أليف+ أكل نبات+...] وللتركيب [ابل+ إنسان...]، [ابل + إنسانا عربيا..] فلا جرم أن علاقة الإبل بالإنسان وطيدة وعجيبة في حله وترحاله في أفراحه وبكائياته، وقد ضرب لنا الشعر أروع الأمثلة في حميمية العلاقة بين الإنسان وناقته، من هنا كان موضع التأمل في الإبل ، وهذا الانسجام في العلاقة بين الإنسان والإبل يعضده انسجام آخر وهو السماء المرفوعة مما يقوي الوصلة بين خلق الإبل في الأرض ورفع السماء من الله ويبقى المخاطب ابتداء، هو العربي حيث تطل عليه السماء بشمسها التي تساعد الظاعن مع ناقته وغيومها فتكون الجبال المنتصبة ملجأه الوحيد. ولما كانت شمس العربي ساطعة في اغلب الأحوال وأرضه مبسوطة احمديه صورها القرآن ، بناء على رؤية الإنسان ، مسطحة .

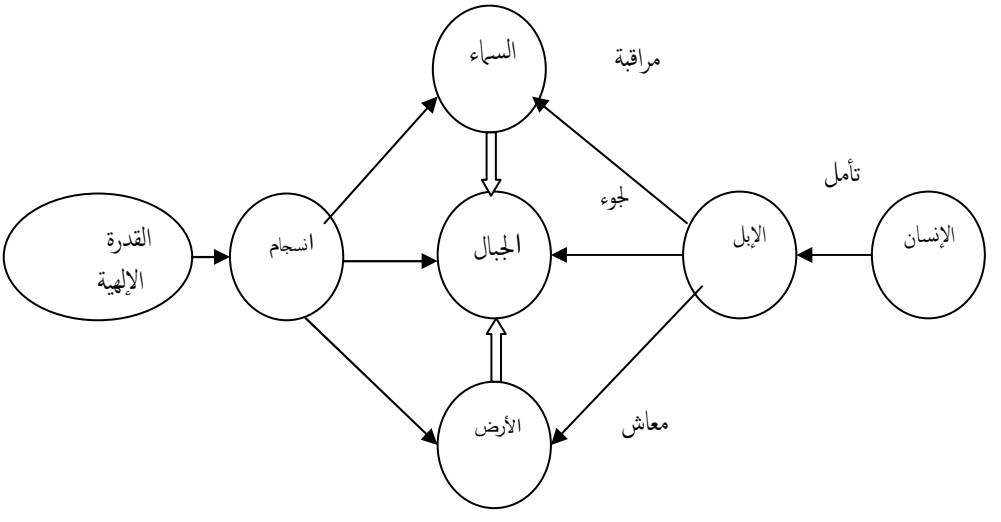

فالتأمل في الكون قراءة لكتاب منظور يتضمن عدة نصوص بالمعنى الواسع لكلمة نص –منسجمة، فالانسجام يعني عدم التناقض فقط، إذ يدخل في الانسجام التشابه والاختلاف والتضاد والاشتمال وغيرها من العلاقات.

ومن النصوص " المنظورة" نستلهم النصوص اللغوية خصوصا إذا كانت دائمة التفاعل مع الإنسان . لكن هذا لا يجعلنا نتوهم أن اللسان تقليد أو محاكاة كلية الأشياء « فلو كان حال الكلم في ضم بعضها إلى بعض كحال غزل الابريسم لكان ينبغي أن لا تتغير الصورة الحاصلة من نظم كلم حتى تزال عن مواقعها ، كما لا تتغير الصورة الحادثة عن ضم غزل الابريسم بعضه إلى بعض حتى تزال الخيوط عن مواقعها» (55)

وصفوة القول:

إن مظاهر البيان تنوعت بين الاتصال الشفهي والكتابي واللغوي وغير اللغوي، فاختلفت الأبعاد النصية انطلاقا من عملية الإنتاج وما تشترطه من سلامة آلة النطق والعقل من مرجعية ثقافية ومن قدرة على الإقناع، وصولا إلى عملية التلقي وما تتطلبه من حضور المتلقي الخاص أو العام ، الصريح أو الضمني ، الحاضر أو المؤجل .

ارتبط البيان بالوظيفة أكثر من البنية، وبالفهم والإفهام أكثر من نظم وحدات النص، وكأن لسان حال البلاغيين يقول إن البيان وحدة دالة تواصلية تكمن قيمتها في ظروف الإنتاج والاستقبال. وأما الحديث عن تركيبية النص وخصوصية قواعده (الإحالة والحذف والاستبدال، والتكرار..) فلم تمثل الشيء الكثير عند علماء البيان، وأجلوها لمصطلح آخر لا يقل أهمية هو النظم.

كان الجاحظ يتشوف لتأسيس علم عام يقارب أنواعا مختلفة من النصوص (خطابة، شعر، أمثال، حكم، رسائل، منظرات...) ذات أنماط عديدة (حجاجية، وصفية، إخبارية، سردية، حوارية..) ليقترب من الوظيفة الفعلية للبلاغة الجديدة فتاه

في تجليات اللغة الطبيعية المتشابكة ومفارقات الاستعمال العجيبة (الإيجاز، الإطناب، الفصاحة، اللكنة، الصمت، الكلام، الإعراب واللحن، المنطق والإشارة، الطبع والصنعة...) واتجه بذلك اتجاها وصفيا استقرائيا يقدم النص ثم يستنبط انسجامه.

نزوع صاحب البيان والتبيين نحو اختيار النصوص ليس داعيا كافيا لاتهامه بالمعيارية وأنه «ذكر أخبارا منتخبة ....» كون الجاحظ قد آمن بالانسجام بوصفه آلية لمطابقة النص للواقع الاجتماعي والثقافي، فلم ينتصر لقضية إلا وهو قد سرد عديد الاستثناءات التي تكثر نافيا بذلك سلطة المعيار ومنتصرا لسلطة النص مع مقامه.

تعمّق ابن وهب في مفهوم البيان من خلال التنقيب في أصوله وفروعه، ظاهره وباطنه فسيَّج– ما أمكن- بيان الجاحظ المطلق عبر نظرة فلسفية دينية تؤسس لبيان عقدي.

الهوامـــش و المراجـــع

(1)- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، (دط)،(دت)،ج1 / ص56.

(2)- ينظر محمد العمري، البلاغة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق،ط،2، 2012 ، ص39.

(3)- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1/ ص56.

(4)- الإطار بنية معطيات ثابتة تستدعى من الذاكرة جبن يواجه الإنسان وضعية جديدة، وهذا المفهوم مأخوذ من الذكاء الاصطناعي المدونة متتالية الأحداث المنتظمة معياريا في الذهن. السيناريو يختص بوصف المجالات الممتدة للمرجع عبر المقامات والوضعيات التي يقترحها نص ما وتساعد على تأويله أما الخطاطه فهي بنية معرفية معقدة تسهم في تنظيم البحرية وتأويلها عن طريق التوقع. ينظر محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، جامعة منوبة، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 2001م، ص176.

(5)- الراوي :عبد الرحمن بن أبي عميرة المحدث :الألباني -المصدر :السلسلة الصحيحة- الصفحة أو الرقم :1969.

(6)- جمال بن دحمان، الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري، التشعب والانسجام، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011، ص36 .

(7)- عز الدين جلاوجي، رأس المحنة، 1+1=0، دار الأمير خالد، الجزائر، ص105.

(8)- محمد خير البلقاعي، دراسات في النص والتناصية، مركز الإنماء الحضاري، حمص، ط1، 1998، ص38.

(9)-الراوي: أبو هريرة المحدث: ابن حبان - المصدر: صحيح ابن حبان - الصفحة أو الرقم:4411 خلاصة حكم المحدث: أخرجه في صحيحه.

(10)- صالح محمد محمود بدر الدين: المسؤولية الدولية عن أضرار البث المباشر للأقمار الصناعية، ملتقى الإعلام والقانون ، في 14-15-03-1999، جامعة حلوان، ص 48، 49.
(11)- فان دايك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، مصر، ط1، 2001، ص 29.
(12)- ينظر الجابري محمد عابد، تكوين العقل العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2000، ص 177، نقلا عن جمال بنجمان، الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري التشعب والانسجام، ص 27.
(13)- علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، البيان زوالمعاني والبديع، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط:1، 2009
(14)- الجاحظ، البيان والتبيين، ص 50.
(15)- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة، الجزائر، ط2، (دت)، ص27.
(16)- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان تقديم وتحقيق حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، مصر، ص 9.
(17)- ينظر محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية نحو كتابه تاريخ جديد للبلاغة والشعر، إفريقيا الشرق، بيروت، ط1، 2001، ص 85.
(18)- ينظر فان دايك، النص والسياق ، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، بيروت، الدار البيضاء، ص 214 وما بعدها .
(19) Adam Jean-Michel, linguistique textuelle des genres de discours au textes, Nathan Université, Paris, 1999. P127...
(20)- جريدة النهار الجديد، ليوم الاثنين 17 جوان 2013 الموافق لـ 08 شعبان 1434 هـ، العدد 1736، ص 1.
(21)- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان،ص56,57.

(22)- المصدر نفسه،ص 201.
(23)- ينظر إبراهيم بشار، مقدمة نظرية في تعليمية اللغة بالنصوص، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 7، جوان 2010، جامعة محمد خيضر بسكرة، ص 280 وما بعدها. محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص 115 وما بعدها ...
(24)- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص 201.
(25)- ينظر محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان،ص 1، 2001، ص 73، 71.
(26)- باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة ، تونس ، 2008، ص 181.
(27)- جون لانكشو أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2008، ص 100.
(28)- الجاحظ، البيان والتبيين، 175/1، 176.
(29)-الجاحظ، البيان والتبيين، 1/ ص59.
(30)-ابن وهب, البرهان في وجوه البيان، ص 61.
(31)- ينظر باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، ص553.
(32)- الجاحظ، كتاب الحيوان، ج1، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط2، 1384 هـ 1965م، شركة مصطفى الباجي الحلبي، مصر، 1/ص 47، 48.
(33)- البرهان في وجوه البيان، ص 61.
(34)- المصدر نفسه، ص61.
(35)- الجاحظ، البيان والتبيين، 58/1 .

(36)- ينظر حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، تونس ط1981،1، ص 172.

(37)- البرهان في وجوه البيان، ص 61.

(38)- البيان والتبيين،1/ص57

(39)- المصدر نفسه، 1/ص59

(40)- المصدر نفسه، 303/2.

(41)- المصدر نفسه، 57/1.

(42)- المصدر نفسه، 1/ص 58.

(43)- المصدر نفسه، 65/1.

(44)- محمد علي عبد الكريم الرديني، مباحث لغوية، الحركة الجسمية في القرآن الكريم، المحاولات النقدية للمعجمات القديمة والحديثة ، علم اللغة وعلم الكينات، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.

(45)- الجاحظ، البيان والتبيين،57/1.

(46)- محمد علي عبد الكريم الرديني، مباحث لغوية، ص 87.

(*)- تشير إلى المحاولات الجادة لعلمية دراسة الحركة الجسمية في إطار علم الكينات (Kinesasics)، حيث اجتهد بيروسل لتحليل الحركات الجسمية بمنهج يتجاذب كثيرا مع منهج التحليل اللساني، ينظر : فاطمة محجوب، دراسات في علم اللغة،ص 167 وما بعدها.

(47)- ينظر ، المرجع نفسه،ص 94.

(48)-الجاحظ، البيان والتبيين،59/1.

(49)- ابن وهب, البرهان في وجوه البيان, ص,72,71

(50)-الجاحظ، المرجع السابق،60/1.

(51)- محمد مفتاح، التشابه والاختلاف ، نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء / المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 1996،ص 9.

(52)- ينظر ابن وهب، البرهان، ص 65.
(53)- المصدر نفسه،ص 21.
(54)- ينظر نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، دار عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي ، ط1، 1429 هـ/2009م، ص 136.
(55)- الجرجاني، كتاب دلائل الإعجاز، علق عليه محمود محمد شاكر، الناشر مطبعة المدني ، دار المدني بجدة، 1413هـ، 1992 م، ص372.